الحسد والعين وتأثيرهما في ضوء الكتاب والسنة

الأستاذ الدكتور موسى شاهين
خبير أول بالمركز

الحسد في لسان العرب أن تتمنى زوال نعمة المحسود إليك. قاله الجوهري - وأصل الحسد القشر - كما قال ابن الأعرابي، فكأن الحاسد يقشر النعمة عن المحسود. وقال صاحب اللسان: الحسد معروف، يقال حَسَده يحسده حسدا وحسّده إذا تمنى أن تتحول إليه نعمته وفضيلته، أو يسلبها هو. وقيل: الحسد أن يرى الرجل لأخيه نعمة، فيتمنى أن تزول عنه، وتكون له دونه [1].

والحسد عند علماء الشريعة لايختلف عنه في اللغة، فمداره على تمنى زوال نعمة الغير وتحولها إلى الحاسد دون المحسود.

لكن بعض العلماء يعمم فيقول: هو تمنى زوال نعمة الغير، سواء أتمنى تحولها إليه دون المحسود أم لم يتمن ذلك التحول، وهذا التعميم جيد ومطلوب، لأن الذي يتمنى زوال نعمة الغير وتحولها وانتقالها إلى نفسه له بعض العذر، وهو الحرص على مصلحة نفسه، أما الذى يتمنى زوال نعمة الغير وهو لا يريدها لنفسه فلا عذر له ألبتة، وهو بذلك أعظم جريرة من الذى يتمناها لنفسه، وهذا النوع - للأسف - موجود في زماننا بكثرة، ينظر إلى ما عند الغير من نعمة، وعنده مثلها أو أحسن منها، لكنه يستكثرها عليه، أو يستصغره عليها، فهو لا يريدها لنفسه، وإنما يتمنى زوالها، مجرد زوالها، وقد يكون لايقبلها لنفسه، لأنها دونه، كملك عنده القصور يحسد فقيراً على كوخ، فهذا أفحش الحسد وأقبحه، وهذا من سوء الطباع البشرية التى يجب علاجها وما أكثر وقوعه من الطغاة والجبارين.

وأقل من هذا إثماً من يتمنى زوال نعمة الغير ليتساوى معه في الحرمان، وهذا أيضاً من سوء الطباع، ويعلل الحافظ ابن حجر هذه الطبيعة فيقول: إن الطباع مجبولة على حب الترفع على الجنس - أي على أفراد الجنس - فإذا رأى لغيره ما ليس له أحب أن يزول ذلك عنه، إما لينتقل إليه، فيرتفع عليه، وإما ليزول عنه ولو لم ينتقل إليه ليساويه [2].

والحق أن الحسد ليس قاصراً على تمنى زوال نعمة الغير، بل منه الفرح لزوال نعمة

---

(١) لسان العرب.

(٢) فتح الباري جـ١، ص ٢٠٠

الغير، والارتياح لمصائب الناس، لأنه في حكم من كان يتمنى زوالها قبل زوالها، بل هو أشد قسوة من الذى تمنى زوالها، فقد يشفق ويتألم من كان يتمنى زوالها إذا حصل المصاب. أما هذا الذى قسا قلبه، وخلا من المشاركة الوجدانية، ولم يحس بآلام الآخرين فقد فَقَد خاصية الإيمان وخلق المؤمنين، والحديث الصحيح يقول «ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضواً تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى» (٣).

ومن هذا أيضاً الحزن لحصول المؤمن على نعمة وخير، فكأنه كان قبل حصولها يتمنى عدم حصولها، وتمنى عدم حصول النعمة يساوي تمنى زوالها بعد حصولها.

وهذا النوع كسابقه، فَقَدَ خاصية المؤمنين، وتسربل بأوصاف الكافرين، إذ يقول جل شأنه ﴿إن تمسسكم حسنة تسؤهم، وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها، وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا، إن الله بما يعملون محيط﴾ (٤).

ومن هذا أيضاً الحرص على أن لا يصل الخير إلى الغير، أو تمنى أن لا يصل إلى الغير، فتمنى عدم حصول النعمة يساوى تمنى زوالها بعد حصولها.

وقد تبين من هذا العرض أن الحسد من أمراض القلوب، مقصور على دائرتها، داخل في محيطها، فإن تخطى تأثيره هذه الدائرة بالقول أو بالفعل أو بالسعي إلى إزالة النعمة عن الغير بأية وسيلة من الوسائل سُمّي بغياً. وكذلك إذا تخطى الفرح لزوال نعمة الغير دائرة القلب، فظهرت على وجهه وجوارحه الشماتة، وأعرض عن المشاركة والمواساة فهو باغ.

وإذا تخطى الحزن لحصول المؤمن على نعمة وخير دائرة القلب، فتجهم الوجه، وظهر الأسى على سلوكه، وامتنع عن تهنئة من أنعم الله عليه فهو باغ.

وإذا تخطى الحرص على أن لايصل الخير إلى المؤمن دائرة القلب فانضم إلى ذلك السعي إلى منع الوصول إلى النعمة بالقول أو بالفعل فهو باغ. وكذلك إذا حرص على إزالة نعمة الغيرِ فمنعه الجبن أو الخوف أو العجز من إزالتها فهو باغ. أما إذا وقف

---

(٣) أخرجه البخاري/ كتاب الأدب/ باب رحمة الناس بالبهائم، وأخرجه مسلم/ كتاب البر/ حديث رقم ٦٦ وأخرجه أحمد جـ ٤ ص ٢٧٠.

(٤) سورة آل عمران - الآية ١٢٠.

الأمـــر عنـــد دائرة القلب ودائرة التمنى ودائرة الفـــرح لـــزوال النعمـــة، أو الحزن لحصولها، أو الحرص القلبي على عدم حصولها فهذا هو الحسد، وهو مذموم شرعاً، لأن الحاسد في هذه الحالة كالمتسخط على قضاء الله، المعترض عليه في قضـائه، ولهذا جاء في الحديث «الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب»(٥).

وقد أفاض الإمام الغزالى في الإحياء في حقيقة الحسد وأسبابه وحكمه وعلاجـه، ونقل قول زكـريـا عليـه السـلام : قـال الله تعـالى ﴿الحاسـد عـدو لنعمتى، مسخط لقضـائى، غير راض بقسمتى التى قسمت بين عبـادي﴾ ثم قـال : وقيل : الحاسـد مغتاظ على من لا ذنب له، بخيل بما لا يملكه، وهو يعاند المقاديـر الإلهيـة، ويطلب وضع الحق في غير موضعه، أو زواله عن موضعه(٦).

قال بعض العلماء : واستثنوا من ذلك ما إذا كانت النعمة لكافر أو فاسق، يستعين بها على معاصى الله. وهذا الاستثناء حق، لذا عـرف الحافظ ابن حجـر الحسـد بأنـه تمنى زوال النعمة عن مستحقها، والكافر والفاسق الذى يستعين بالنعمة على معاصي الله لا يستحقها(٧).

وبملاحظة هذا القيد وهذا الاستثناء يبدو واضحاً جلياً دعاء موسى عليه السـلام على فرعون وملئه كما يحكي ذلك القرآن الكريم بقوله ﴿وقال مـوسى ربنـا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالاً في الحياة الدنيا، ربنا ليضلـوا عن سبيلك ربنـا اطمس على أموالهم، واشدد على قلوبهم، فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم. قال : قد أجيبت دعوتكما﴾(٨).

فلما كانت الأموال وزينة الحياة الـدنيـا لفـرعـون وملئـه بـاعثـة لهم على الضلال والإضـلال تمنى مـوسى وأخـوه زوال هـذه النعمـة، ودعـوا الله تعـالى بإزالتهـا، واستجاب الله لهما هذا الدعاء.

هذا. واللغة والشريعة تفرقان بين الحسد والغبطة، ففي لسـان العـرب : والغبط

---

(٥) أخرجه أبو داود/ كتاب الأدب/ باب ٤٤ وابن ماجه/ كتاب الزهد/ باب ٢٢.
(٦) إتحاف السادة المتقين بشرح أسرار إحياء علوم الدين للزبيدي/ مجلد ٨ ص ٥٢ ومابعدها.
(٧) انظر فتح الباري جـ ١، ص ٢٠٠ و جـ ١٠، ص ٤٩٧.
(٨) سورة يونس - الآيتان ٨٨، ٨٩.

أن يتمنى أن يكون له مثلها، ولا يتمنى زوالها عنه.

وفي فتح الباري يقول الحافظ ابن حجر: والغبطة أن يتمنى أن يكون له مثل ما لغيره من غير أن يزول عنه، والحرص على هذا يسمى منافسة، فإن كان في الطاعة فهو محمود، ومنه ﴿فليتنافس المتنافسون﴾(٩). وإن كان في المعصية فهو مذموم، ومنه «ولا تنافسوا»(١٠) وإن كان في الجائزات فهو مباح(١١).

وقد يطلق لفظ الحسد على الغبطة مجازاً، كما في حديث «لا حسد إلا في اثنتين. رجل علّمه الله القرآن فهو يتلوه آناء الليل وآناء النهار، فسمعه جار له، فقال: ليتني أوتيت مثل ما أوتي فلان، فعملت مثل ما يعمل، ورجل آتاه الله مالاً فهو يهلكه في الحق، فقال رجل: ليتني أوتيت مثل ما أوتي فلان، فعملت مثل ما يعمل»(١٢) فالمراد من الحسد في هذا الحديث الغبطة، فإن كلاً من الرجلين تمنى مثل ما عند الغير ولم يتمنّ زوال النعمة عن الغير، والمعنى لا غبطة أعظم أو أفضل من الغبطة في هذين الأمرين.

والحسد والغبطة يشتركان في أصلهما وفي الدافع لهما، وهو النظر إلى ما عند الغير.

والحق أن النفس البشرية تندفع بطبيعتها إلى النظر إلى ما عند الغير، ومن الصعب أو المستحيل أن لا تنظر، لكن عليها حين تنظر أن تفكر وأن تعقل وأن تتدبر.

إن الله تعالى قسّم النعم بين العباد، ولا يكاد يجمع النعم الدنيوية عند واحد، فهذا أعطى مالاً وحُرم أولاداً، وهذا أعطى أولاداً وحُرم مالاً، وهذا أعطى مالاً وأولاداً وحُرم الصحة، وهذا أعطى مالاً وأولاداً وصحة وحرم المنصب أو الجاه، وهكذا من أعطى نعمة أو نعماً حُرم نعمة أو نعماً، فإذا ما تطلعت نفسه إلى ماهو في يد الغير مما تفتقده هى عليه أن ينظر إلى النعم التى عنده وليست عند غيره، يقول القرآن الكريم ﴿ولا تتمنوا ما فضّل الله به بعضكم على بعض، للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء

---

(٩) الآية ٢٦ من سورة المطففين.

(١٠) جزء حديث رواه مسلم/ كتاب البر/ حديث ٢٨.

(١١) فتح الباري جـ١، ص٢٠١.

(١٢) أخرجه البخاري/ كتاب فضائل القرآن/ باب اغتباط صاحب القرآن.

نصيب مما اكتسبن واسألوا الله من فضله، إن الله كان بكل شيء عليماً﴾ (١٣) ويقول ﴿ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى﴾ (١٤).

ويقول ﷺ «إذا نظر أحدكم إلى من فضل عليه في المال والخَلْق - أي الصورة والخلقة - فلينظر إلى من هو أسفل منه ممن فضل (هو) عليه» (١٥)،ولفظ مسلم «انظروا إلى من هو أسفل منكم، ولا تنظروا إلى من هو فوقكم، فهو أجدر أن لاتزدروا نعمة الله عليكم» (١٦) أي أقرب إلى أن لا تقللوا في أنفسكم من شأن ما عندكم من نعم.

يقول ابن بطال: إن المرء لايكون على حال خسيسة من الدنيا إلا وجد من أهلها من هو أخس حالاً منه، فإذا تفكر في ذلك علم أن نعمة الله وصلت إليه دون كثير ممن فضل عليه بذلك، فيلزم نفسه الشكر، ويعظم اغتباطه بذلك، والنظر إلى من فوقه في النعمة باعث من بواعث الحسد، والشخص إذا نظر إلى من هو فوقه لم يأمن أن يؤثر ذلك فيه حسداً، ودواؤه أن ينظر إلى من هو أسفل منه، ليكون ذلك داعياً إلى الشكر. أهـ(١٧).

وليس معنى ذلك أن يقف عند حاله في الدين أو الدنيا، دون أن يحاول السعي إلى ماهو أعلى وأرقى، فالرضا عن الواقع لايمنع من الترقى إلى ما فوقه، بل الرضا عما تم تحصيله يدفع إلى المزيد من التحصيل، ثم إن الحديث لم يمنع من النظر إلى من هو أعلى رجاء اللحاق به في الأمور المشروعة، بل خوف ازدراء نعمة الله الحاصلة عنده.

ويحسن بنا هنا أن نعرض حالات النظر إلى ما عند الغير، وما يترتب على كل حالة، وموقف الإسلام منها، وبالله التوفيق.

الحالة الأولى: أن ينظر إلى ما عند الغير من نعمة دنيوية، فلا يتمنى زوالها، بل يفرح بها ويُسَرّ لها، بل ويتمنى لصاحبها المزيد منها، ويعمل على تكثيرها،

---

(١٣) الآية ٣٢ من سورة النساء

(١٤) الآية ١٣١ من سورة طه.

(١٥) أخرجه البخاري/ كتاب الرقاق/ باب لينظر إلى من هو أسفل منه ولا ينظر إلى من هو فوقه.

(١٦) أخرجه مسلم/ كتاب الزهد - حديث ٣٨ وإبن ماجه في المقدمة/ ١١.

(١٧) انظر فتح الباري جـ ١١، ص ٣٣٠.

وهـذه الحالـة كثيرة الوقـوع من الآبـاء بالنسبـة لنعم الأبنـاء، فإن الإنسـان بطبيعتـه لا يحـب أن يعلو عليـه غيره إلا أن يكون ابنـاً له، وقـد تقـع أحيـانـاً بين المتحـابين حباً صافياً عالياً، وهي مطلوبة من المؤمن للمؤمن المستحق، فـرسـول الله ﷺ يقـول «والذى نفسي بيده لا يؤمن عبد (أي إيماناً كامـلاً عـاليـاً) حتى يحب لأخيـه مـا يحب لنفسه» (١٨). والإنسـان لايحب لنفسـه إلا حصـول الخير، والاستـزادة من الخير، والإنسان يُسرّ بما يصل إليه من الخير، فإذا أحب لأخيـه مـا يحب لنفسـه فـرح بنعمـة أخيه المسلم كما يفرح بنعمة نفسه، وتمنى لأخيه المزيد منها كما يتمنى لنفسه المزيـد من النعماء، وعمل على زيادتها عند أخيه كما يعمل على زيادة نعماء نفسه، وبهذا يتحقق له أنه يحب لأخيه ما يحب لنفسه.

بل لبعض العلماء في هـذا الحديث ملحظ أعلى من هـذا فيقـول: ظـاهـر الحديث طلب المساواة، وحقيقته تستلـزم التفضيل، لأن كل أحـد يحب أن يكـون أفضل من غيره، فإذا أحب لأخيه أن يكون أفضل من غيره فقد دخل هو في جملـة المفضـولين، وفضل أخاه على نفسه. أ هـ.

وهذا ظاهر في خلق الإيثار الذى اشتهـر بـه أصحـاب رسـول الله ﷺ، وأثنى الله تعالى به على الأنصار بالنسبة للمهاجرين، حين كان الأنصاري يقول لأخيه المهاجر: انظر إحدى زوجتَيّ هويت نزلت لك عنها وطلقتها لتتزوجها، فأنزل الله تعـالى فيهم ﴿والـذين تبـوؤا الـدار والإيمان من قبلهم يحبـون من هـاجـر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون﴾ (١٩).

قال الكرماني: ومن الإيمـان أيضاً أن يبغض لأخيه مـا يبغض لنفسـه من الشر، ولم يذكره الحديث لأن حب الشيء مستلـزم لبغض نقيضـه غـالبـاً، فترك التنصيص عليه اكتفاء.

---

(١٨) أخرجه البخـاري/ كتـاب الإيمان/ بـاب من الإيمان أن يحب لأخيـه مـا يحب لنفسـه بلفظ «لا يـؤمن أحـدكم»، وأخرجه مسلم/ كتاب الإيمان.

(١٩) الآية (٩) من سورة الحشر.

ويقول الحافظ ابن حجر : ولا يتم ذلك إلاّ بترك الحسد والغلّ والحقد والغش، وكلها خصال مذمومة [٢٠].

الحالة الثانية : أن ينظر إلى ما عند الغير من نعمة أخروية، من دين وعبادة وطاعة وصلاة وصيام وقراءة قرآن وذكر وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر واستقامة على حدود الله، فلا يتمنى زوال هذه النعمة عن صاحبها، وإنما يتمنى لنفسه مثلها، وهذه غبطة محمودة كما ذكرنا في حديث «لا حسد إلا في اثنتين». ولها أجر كبير.

لكن الوقوف عند دائرة التمني، دون محاولة السعي لتحصيل مثل هذه النعمة مع القدرة على العمل لها عجز وتواكل وتكاسل، لا يقرّه الإسلام، فرسول الله ﷺ يقول «استعن بالله ولا تعجز» [٢١]، ويقول «الكيّس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني» [٢٢] والواجب على المؤمن حينئذ أن يعمل على تحصيلها، أو على تحصيل عوض عنها، وقد كان السلف الصالح يفعل ذلك، فقد جاء الفقراء إلى رسول الله ﷺ يقولون «ذهب أهل الدثور من الأموال بالدرجات العلى والنعيم المقيم، يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ولهم فضل من أموال يحجون بها ويعتمرون، ويجاهدون ويتصدقون (وفى رواية لمسلم «ويتصدقون ولا نتصدق، ويعتقون ولا نعتق»)؟

قال ﷺ : «ألا أحدثكم بأمر إن أخذتم به أدركتم من سبقكم، ولم يدرككم أحد بعدكم، وكنتم خير من أنتم بين ظهرانيه إلا من عمل مثله؟ تسبحون وتحمدون وتكبرّون خلف كل صلاة ثلاثاً وثلاثين» [٢٣] زاد مسلم في رواية «فرجع فقراء المهاجرين إلى رسول الله ﷺ فقالوا : سمع إخواننا أهل الأموال بما فعلناه ففعلوا مثله؟ فقال رسول الله ﷺ : ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء» [٢٤].

الحالة الثالثة : أن ينظر إلى ما عند الغير من نعمة دنيوية، فلا يتمنى زوالها عنه، ولا يعمل على إزالتها عنه ولا على تحويلها لنفسه بالقول أو الفعل، ولا يتمنى زيادتها

---

(٢٠) فتح الباري/ كتاب الإيمان حـ ٢ ص ٧٤.

(٢١) أخرجه مسلم/ كتاب القدر/ حديث/ ٣٤ وابن ماجه/ المقدمة/ ١٠.

(٢٢) أخرجه الترمذي/ كتاب القيامة/ باب ٥، وقال : حديث حسن. وأخرجه ابن ماجه/ كتاب الزهد/ باب/ ٣.

(٢٣) أخرجه البخاري/ كتاب الأذان/ باب الذكر بعد الصلاة.

(٢٤) أخرجه مسلم/ كتاب المساجد حديث/ ١٤٢.

لأخيه، وإنما يتمنى مثلها أو أحسن منها لنفسه، ويعمل على تحصيل مثلها أو أحسن منها بالطريق المشروع، وهذا مباح، بل مطلوب وممدوح في الإسلام، لأنه أساس عمارة الأرض، وتقدم الإنسانية، ورقيها وحضارتها.

ولا يخفى أننا نتكلم عن النعمة التى حصل عليها المؤمن بالفعل، أما النعمة المهيأة لأكثر من واحد كوظيفة يصلح لها مؤهلون فالتنافس عليها بالوسائل الشرعية مباح - وإن كان الإيثار أولى كما سبق في الحالة الأولى - ولا يخفى أن شرط إباحة هذا التنافس أن لا يؤدى إلى التدابر والتباغض، وإن كان هذا الشرط لايكاد يتحقق في هذه الأيام، وقد أخبر رسول الله ﷺ عن هذا الزمان بقوله «إذا فتحت عليكم فارس والروم أي قوم أنتم؟ قال عبد الرحمن بن عوف: نقول كما أمرنا الله - أي نحمده ونشكره ونسأله المزيد من فضله - قال رسول الله ﷺ: أو غير ذلك؟ تتنافسون، ثم تتحاسدون، ثم تتدابرون، ثم تتباغضون»(٢٥).

قال العلماء: التنافس إلى الشيء المسابقة إليه، وكراهة أخذ غيرك إياه، وهو أول درجات الحسد.

وهذه الحالات الثلاث ليست من الحسد الشرعي الحقيقي، بل كلها من الغبطة المشروعة، وبعضها أعلى من بعض كما سبق توضيحه.

الحالة الرابعة: أن ينظر إلى ما عند الغير من نعمة دنيوية، فيتمنى زوالها عن الغير سواء تمنى انتقالها إليه أم لا. وهذه الحالة سبق إيضاحها وما يلحق بها في تعريف الحسد أول هذا البحث.

الحالة الخامسة: أن ينظر إلى ما عند الغير من نعمة أخروية، من دين وعبادة وطاعة، فيتمنى زوالها، سواء أتمناها لنفسه أم لم يتمن حصولها لنفسه؟ فإن استهان بها، وسخر من صاحبها فقد اكتسب فوق إثم الحسد بغياً وبهتاناً وإثماً مبيناً، وكثير من الجهلة وأعداء الدين يفعلون ذلك، يرون عابداً صالحاً فيهزءون به، ويسخرون منه، يقولون: ابق خدنا على جناحك. دعواتك يا شيخ فلان. بركاتك يا شيخ فلان بسخرية، ويلقى أخاه في الفسق والفجور، فيغمز الصالح ويلمزه.

---

(٢٥) أخرجه مسلم/ كتاب الزهد والرقائق.

وفي مثل هؤلاء يقول جل شأنه ﴿إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون. وإذا مروا بهم يتغامزون، وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين. وإذا رأوهم قالوا : إن هؤلاء لضالون. وما أرسلوا عليهم حافظين. فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون. على الأرائك ينظرون. هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون؟﴾ (٢٦). وفي ضوء هذه الحالات الخمس نفهم ما جاء عن الحسد في القرآن الكريم؛ ولفظ الحسد ومشتقاته ورد في أربع سور.

ففي سورة البقرة يقول جل شأنه ﴿وَدّ كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا، حسدا من عند أنفسهم، من بعد ما تبين لهم الحق، فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره، إن الله على كل شيء قدير﴾ (٢٧).

رأى أحبار اليهود بالمدينة دخول كثير من الناس في الإسلام، ولاشك أن الإسلام نعمة، حتى في نظر أحبار اليهود، بل أعظم نعمة أنعم الله بها على خلقه. فماذا فعلوا؟ ودوا وتمنوا زوال هذه النعمة عن المسلمين، ودوا وتمنوا أن يردوا المسلمين إلى الكفر بعد إذ هداهم الله إلى الإيمان، ووصف الله هذا التمني وهذه الودادة بالحسد، فقال «حسدا من عند أنفسهم» ولم يفعلوا ذلك جهلاً منهم بأن الإسلام نعمة كبرى، بل من بعد ما تبين لهم الحق. ثم وجهت الآية المسلمين أن يعفوا ويصفحوا عن هؤلاء اليهود، فلا يحاسبوهم على ما في قلوبهم، ولا يؤاخذوهم على هذه الودادة، حتى تبدو العداوة والبغضاء من أفواههم ومن جوارحهم وسلوكهم، وحتى يأتى الله بأمره، وبقوة الإسلام وانتصاراته على الكفر وأهله. إن الله على كل شيء قدير.

فهذا حسد مذموم، أساسه النظر إلى ما عند الغير من نعمة أخروية، وتمنى زوالها، وهو من الحالة الخامسة التى ذكرناها قريباً.

أما السورة الثانية فهي سورة النساء، وفيها يقول الله تعالى عن أحبار اليهود أيضاً ﴿ألم تَرَ إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب، يؤمنون بالجبت والطاغوت، ويقولون للذين كفروا﴾ - أي للمشركين - ﴿هؤلاء﴾ يشيرون إلى المشركين، أي أنتم ﴿أهدى من الذين آمنوا سبيلا. أولئك﴾ اليهود ﴿الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له

---

(٢٦) الآيات من ٢٩-٣٦ من سورة المطففين.

(٢٧) الآية (١٠٩) من سورة البقرة.

بصيرا، أم لهم نصيب من الملك﴾ أي ملك السموات والأرض حتى يقسموا النعم ﴿فإذا﴾ أي فلو فرض أن لهم نصيبا من الملك ﴿لا يؤتون الناس﴾ أي المسلمين ﴿نقيرا. أم يحسدون الناس﴾ محمدا والمسلمين ﴿على ما آتاهم الله من فضله﴾ على النبوة والإيمان ويتمنون زوالها؟ وكيف يحسدون محمداً ﷺ والمؤمنين على هذه النعمة؟ وقد أنعم الله بأمثالها على أجداد اليهود؟ أنعم بها على جدهم يعقوب إسرائيل عليه السلام، وعلى كثير من ذريته، رسل بنى إسرائيل؟ فلا ينبغي أن يحسدوا محمداً ﷺ والمسلمين على هذه النعمة ﴿فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة﴾ الكتب السماوية والنبوة ﴿وآتيناهم﴾ إضافة إلى النبوة ﴿مُلكاً عظيماً﴾ (٢٨) كما آتينا سليمان عليه السلام ما لم نؤت محمداً عليه الصلاة والسلام من مُلك الدنيا العريض.

السورة الثالثة سورة الفتح، وفيها يقول الله تعالى ﴿سيقول المخلفون إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها : ذرونا نتبعكم - يريدون أن يبدلوا كلام الله - قل لن تتبعونا، كذلكم قال الله من قبل، فسيقولون : بل تحسدوننا، بل كانوا لايفقهون إلا قليلا﴾ (٢٩).

تخلف بعض الأعراب من المسلمين عن رسول الله ﷺ، حين دعاهم ليخرجوا معه لفتح مكة، فلما فتحها المؤمنون، وكانوا عشرة آلاف، ودخل الناس في دين الله أفواجا، ونودي في المسلمين أن يخرجوا إلى خيبر، وهى بالنسبة للمسلمين وعددهم لقمة سائغة، وغنائم مضمونة، جاء المخلفون عن فتح مكة إلى رسول الله ﷺ يعتذرون إليه عن تخلفهم، يقولون : شغلتنا أموالنا وأهلونا عن الخروج معك، فاستغفر لنا، وأخبر الله نبيه ﷺ بأنهم يقولون بألسنتهم ماليس في قلوبهم، لأن الحقيقة أنهم ظنوا أن المسلمين سينهزمون أمام أسوار مكة، بل ظنوا أن المسلمين سيبادون عن آخرهم، ظنوا أن الرسول والمؤمنين لن يرجعوا إلى أهليهم أبدا، وزين ذلك في قلوبهم، وظنوا ظن السوء، فحكم الله عليهم بالبوار والخسران، وقضى جل شأنه عليهم بعدم خروجهم للغزوة اللاحقة، وبحرمانهم من مغانمها، فلما طلبوا

---

(٢٨) الآيات من ٥١-٥٤ من سورة النساء.
(٢٩) الآية (١٥) من سورة الفتح.

الخروج مع المسلمين إلى خيبر قال لهم النبي ﷺ والمؤمنون : لن تتبعونا . بهذا حكم الله عليكم . فسيقولون : ليس هذا حكم الله ، بل أنتم الذين تريدون أن تمنعونا من مشاركتكم الغنائم ، بل تحسدوننا وتريدون أن تمنعوا الخير عنا ، وتتمنون عدم وصول النعمة إلينا ، فأطلق المخلفون (الحسد) على إرادة عدم وصول النعمة ، وقد قلنا في تعريف الحسد في أوائل هذا البحث إن منه الحرص على أن لايصل الخير إلى الغير ، لأن الرغبة في عدم حصول النعمة تساوي تمني زوالها بعد حصولها .

بل اتهم المخلفون المسلمين بالبغي والعمل على عدم وصول النعمة إلى المخلفين بالقول . فقالوا : لن تتبعونا . وقد رد الله هذا الاتهام بأن المخلفين لا يفقهون في اتهامهم هذا إلا قليلا ، لأن الحصول على الغنائم غير مضمون ، فقد يحصل الغرم وليس الغنم ، فليس المنع من المصاحبة لمنع نعمة مستحقة ، وإنما كان خوف أن يخذلوا المسلمين بفرارهم من ساحة القتال عند الشدة ، ولذلك عقد الله لهم اختباراً آخر بقوله ﴿قل للمخلفين من الأعراب : ستدعون إلى قوم أولى بأس شديد ، تقاتلونهم أو يسلمون ، فإن تطيعوا يؤتكم الله أجراً حسنا ، وإن تتولوا كما توليتم من قبل يعذبكم عذاباً أليما﴾ (٣٠) .

السورة الرابعة سورة الفلق ﴿قل أعوذ برب الفلق . من شر ما خلق . ومن شر غاسق إذا وقب . ومن شر النفاثات في العقد . ومن شر حاسد إذا حسد﴾ .

يعلم الله تعالى رسوله ﷺ والمؤمنين أن يستعيذوا برب الفلق ، أي يطلبوا العوذ والعون والحماية بالله رب المخلوقات ، فيطلبوا الالتجاء إلى الله ، والاعتصام بفالق الحب والنوى ، مخرج الحي من الميت ، ومخرج الميت من الحي ، فالق الإصباح ومخرجه من الظلمات ، خالق المؤثرات ، وموزع فيها تأثيرها ، خالق الأسباب والمسببات جميعا ، يطلبون عونه وحمايته من أمور تضرهم ، لا قدرة لهم على دفعها ، ولا علاج عندهم لها إلا بعون وحماية رب الفلق ، من شر ما خلق عموما ، ما نراه وما لا نراه ، ما نعلمه وما لا نعلمه ، من إنس أو جن ، من حيوان أو سباع أو طير أو حشرات ، من شر ما خلق ، من شر الجمادات من شر الأرض والكواكب ، من شر الزلازل والبراكين والصواعق والعواصف والسيول والرياح والشهب .

---

(٣٠) الآية (١٦) من سورة الفتح .

ثم خص من هذه العمومات ثلاثة أمور، هى أكثر مصادر الشر لحوقاً بالإنسان. ﴿ومن شر غاسق إذا وقب﴾ أي من شر ظلمات الأخطار إذا فاجأت وهجمت، ﴿ومن شر النفاثات في العقد﴾ أي النفوس الساحرات اللائى يعقدن العقد في الخيوط، وينفثن فيها بالتعاويذ، ويجمعن معها بعض ما أودع فيها من أسرار، من مشط ومشاطة ونحوها، يفرقون بذلك بين المرء وزوجه بإذن الله.

﴿ومن شر حاسد إذا حسد﴾ أي إذا أظهر حسده، وأبان عما في نفسه من تمنى زوال النعمة، وعمل على تحقيق ما تمناه، فقال وعمل.

هذه الأمور الثلاثة لاحول للإنسان فيها، ولا قوة له على دفعها، سواء أكانت المفاجأة قبل الاستعداد، أم الخفاء عن المدركات من سحر أو دواخل النفوس، وإذا كان طلب عون الله واجباً عند توقع أي شر، فإن طلبه في هذه الحالات الثلاث أوجب.

ومن هذه الآيات يتضح لنا أن الحسد حقيقة موجودة في طبائع البشر، وليس من نسج الخيال، وليس أسطورة من أساطير الأولين.

لقد حسد هابيل قابيل، حين قربا قرباناً إلى الله فتقبل من قابيل ولم يتقبل من هابيل، فهدده بالقتل، فقال: إنما يتقبل الله من المتقين، فقتل هابيل قابيل فأصبح من الخاسرين.

ومن قبلهما حسد إبليس آدم عليه السلام على نعمة تكريم الله لآدم، وعمل على إزالة هذه النعمة، وسعى في عصيان آدم لربه، ووسوس لآدم وزوجه، فأزلهما الشيطان عن الجنة، وأخرجهما مما كانا فيه، ومازال يحسد بنى آدم، ويوسوس لهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ليحول بينهم وبين كرامة الله لهم.

وحُسد يوسف وأخوه، حسدهما إخوتهما على نعمة حب أبيهما لهما، ﴿إذ قالوا ليوسفَ وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة، إن أبانا لفي ضلال مبين. اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوماً صالحين﴾ (٣١).

وخاف يعقوب عليه السلام على أولاده الحسد، وكانوا عشرة من الرجال في

(٣١) الآيتان (٨، ٩) من سورة يوسف.

درجة عليا من الجهال. ﴿وقال : يابني لاتدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة، وما أغني عنكم من الله من شيء، إن الحكم إلا لله، عليه توكلت، وعليه فليتوكل المتوكلون﴾ (٣٢).

والذى يعنينا في هذا المقام إثبات الحسد كحقيقة واقعة، وأن شأنه شأن المدركات الداخلية، شأن الظن والحقد والكبر والرياء والبغضاء، ونحوها من أمراض القلوب التى تدخل حياة الإنسان، ولا يجهلها إنسان، ولا ينكر وجودها إلا مكابر أو جهول.

لكن قد يختلط على بعض الناس الحقائق الداخلية في الإنسان، والأساطير والخيالات التى لا وجود لها في الخارج ولا في الداخل، يختلط على بعض الناس حقائق الأشياء الثابتة في النفوس، وما هو من نسج الخيال كالغول والعنقاء والهامة وصفر وقصص ألف ليلة وليلة.

قد يختلط على بعض الناس ذلك، فيظن أن الحسد من الأساطير، لمجرد أنه مع الإنسان في القديم، مع أن أكثر طبائع الإنسان، وأكثر أمراض القلوب مركوزة في الإنسان منذ كان.

إن من ينكر حقيقة الحسد شبيه بمنكر البديهيات من الأمور، وكذلك من ينكر ما يترتب عليه من الآثار.

إن الحسد كالظن، قد يحاربه صاحبه ويوقفه عند دائرة التمني، وقد يُخرج صاحبَه من دائرة التمني إلى ساحة الحقد الداخلي والبغضاء، وقد يَدفع صاحبه من دائرة التمني إلى ميدان القول والعمل الخارجي لإزالة النعمة، فيقع في البغي والفسوق والعصيان. وكذلك الظن السيء، قد يحاربه صاحبه ويوقفه عند دائرة الخواطر النفسية، وقد يُخرج صاحبَه إلى ساحة التحسس والتجسس وتتبع السوءات والوقوع في أعراض المسلمين.

والحسد في دائرة التمنى يقع على مرحلتين. مرحلة الخواطر النفسية الطارئة المتغيرة غير المستقرة، ومرحلة الثبوت والاستقرار في النفس، تماماً كالظن السىء

---

(٣٢) الآية (٦٧) من سورة يوسف.

والتشاؤم، فالمرحلة الأولى لا يسلم منها أحد، ولـذا عفـا الله عنهـا، والمطلـوب ممن يعرض له ذلك أن يحاربه، وأن يدفعه، وأن يكرهـه، كما يكـره ويحارب مـا وضع في طبعه من حب الشهوات، قبل أن يدخل دائرة الاستقرار وأمراض القلوب.

والحسد في مرحلته النفسية الثانية مذموم محرم، لأنه (وإن لم يضر المحسود في هذه الحالة) يضر الحاسد نفسه، ويحيق به. فيحترق من الداخل، ويكتـوي بنـار كـراهيـة نعمة الغير، ولهذا قال الإمام علي - رضى الله عنه - لله در الحسـد مـا أعـدلـه؟ بـدأ بصاحبه فقتله.

وقال ابن المعتز:

اصبر على حسد الحسود فإن صبرك قاتله فالنار تأكل بعضها إن لم تجد ما تأكله [٣٣]

فلمـا كان الحسـد بهذا المعنى ضاراً بالحاسـد كان محرماً، عملاً بالقاعدة الشرعيـة «لا ضرر ولا ضرار» ولما كان الحسد بهذا المعنى باعثاً على البغي دافعاً إليه كان محرماً، عملاً بالقاعدة الشرعية: ما أدى إلى الحرام حـرام، ووسيلـة الشيء تأخـذ حكمـه، وعملاً بقاعدة سد الذرائع.

وليعلم الحاسد الباغي أنه لن يضر المحسود إلا بشيء قد كتبه الله عليه وأن عـاقبـة الحاسد الخسران، ومن حفر بئراً لأخيه وقع فيـه، وتحدثنـا الأقـاصيص عن حـاسـد حسد جليس الملك المقرب منه على هـذه الحظـوة، فـرسم خطـة لـلإيقـاع بينـه وبين الملك، ودعاه إلى طعام خبيث الرائحة، فلما توقف عن الأكل لأنـه يخشى على الملك الرائحة الخبيثة عند محادثته قال له الحاسد: ابعد فمك عن الملك عند محادثته، وذهب الحاسـد إلى الملك يقـول لـه: إن جليسك فـلانـاً يقـول عنك: إنك أبخـر، لفمك رائحة خبيثة، وإنه حين يتكلم معك يبعد أنفه عنك لئلا يشم الريح الكريه، وترصـد الحاسد المحسود حين دخل على الملك، وراقب الملك المحسـود فـوجـده فعـلا يشيح بوجهه إلى الجهة البعيدة عنه، فكتب كتاباً إلى عامله وحمله إياه، وكان الملك لا يكتب بيده إلا كتاب عطاء ومنحة، وقابل الحاسد المحسود فسألـه، فأراه الكتـاب، فطلب الحاسد من المحسود أن يهب له الكتاب، فوهبه إياه، فذهب به إلى العامل، فلما فتحه

---

(٣٣) روح المعاني للألوسي - تفسير سورة الفلق جـ ٣٠، ص ٢٨٤.

العامل وجد فيه : إذا أتاك حامل كتابي هذا فاقطع رقبته وأرسل لي رأسه، فلما جاءت رأس الحاسد إلى الملك عجب وطلب مستشاره وجليسه، فسأله، فأخبره الحقيقة. فصدق المثل : من حفر بئرا لأخيه وقع فيه. وليعلم المحسود أن الله سيحميه من الحاسد إن التجأ إليه، وأنه إذا أصابه شيء من جراء بغي الحاسد فسيعوضه الله عنه خيراً منه.

أما كيف يتقى المؤمن الحسد؟ أو كيف يدفع شر الحاسد إذا أبان عن حسده وبغى وسعى إلى إزالة النعمة فعليه بالاستعاذة منه بالله، وأن يحاول الوقاية والدفاع عن النفس بالطرق المشروعة، لكن لا يقابل الشر بالشر، ولْيُعذر صاحب النعمة حاسدها، فكل ذى نعمة محسود. قال أبو تمام :

وأعذر حسودك فيما خصصت به ... إن العلا حسن في مثلها الحسد [٣٤]

وربما كان الإحسان إلى الحاسد مخففاً من أضراره وشروره، ولا نقول : معالجاً ودافعاً لحسده، فإن من المتعذر إرضاء الحاسد، فقد قال معاوية - رضي الله عنه - كل الناس أقدر على رضاه إلا حاسد نعمة، فإنه لا يرضيه إلا زوالها. وقال الشاعر :

كل العداوة قد ترجى إماتتها ... إلا عداوة من عاداك من حسد [٣٥]

أما العين فهي في الأصل جارحة البصر، لكن المراد منها هنا تأثر النعمة هلاكاً أو نقصاً بإذن الله عند إصابتها بهذه الجارحة، يقال : رقية العين، أي رقية المصاب بالعين، تقول : عِنْت الرجل إذا أصبته بعينك، فهو معين ومعيون، ويقال : رجل عائن ومعيان وعيون، أي يصيب الأشياء بعينه، عن طريق النظر إليها باستحسان، وأطلقت العين على الإصابة عن طريق الاستحسان وإن لم يكن إدراك حسنها بالعين. فالأعمى مثلاً قد يستحسن الأشياء باللمس، فيوجه إليها نفسه الخبيثة المؤثرة فتصاب، وكذلك الشم والذوق والسمع، وكافة وسائل الإدراك المؤدية إلى العلم بمحاسن الأشياء. وإنما اختيرت العين هنا لأنها أهم هذه الوسائل وأكثرها استعمالاً في هذا المجال.

---

(٣٤) المرجع السابق وفتح الباري، جـ١ ص٢٠٠، جـ١١، ص٤٩٨.

(٣٥) إتحاف السادة المتقين للزبيدي بشرح أسرار إحياء علوم الدين/ مجلد/ ٨ ص ٥٢ ومابعدها.

وقد سبق أن عرفنا الحسد بأنه تمنى زوال نعمة الغير، وعرفنا العين هنا بالنظر إلى الشيء باستحسان، فالعين والحسد متغايران، وإن اجتمعا أحياناً، فقد يستحسن العائن الشيء عند الغير فيتبعه بتمنى زواله، وقد يتمنى زوال نعمة الغير، فيتبع هذا التمنى بنظرة استحسان لهذه النعمة قاصداً إهلاكها، حتى قيل: إن بعض الحاسدين يستعينون أحياناً بعائن، ليحقق لهم ما تمنوه من إزالة النعمة عن الغير، وقد يقع الحسد ولا تتدخل العين، فيتمنى الحاسد زوال نعمة الغير وهو لا يستحسنها، بل قد يستقبحها ويأنف منها ولا يرتضيها، ولا يحبها كما سبق، وقد تصيب العين ولا حسد، يستحسن النعمة ويعجب بها ولكن لايتمنى زوالها، كما إذا أعجب الشخص بماله، أو بمال ابنه، فإن العين قد تصيب هذه النعمة، على الرغم من أنه لا يتمنى زوالها، بل يتمنى بقاءها وزيادتها.

والقرآن الكريم يحدثنا عن صاحب الجنتين، فيقول ﴿واضرب لهم مثلاً رجلين، جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل، وجعلنا بينهما زرعا، كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئا وفجرنا خلالهما نهرا. وكان له ثمر، فقال لصاحبه وهو يحاوره: أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا. ودخل جنته وهو ظالم لنفسه، قال: ما أظن أن تبيد هذه أبدا. وما أظن الساعة قائمة، ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيراً منها منقلبا. قال له صاحبه وهو يحاوره: أكفرت بالذى خلقك من تراب؟ ثم من نطفة؟ ثم سواك رجلا؟ لكنا هو الله ربي ولا أشرك بربي أحدا. ولولا إذ دخلت جنتك قلت: ما شاء الله لا قوة إلا بالله؟ إن تَرَن أنا أقل منك مالا وولدا. فعسى ربي أن يوتين خيراً من جنتك ويرسل عليها حسباناً من السماء فتصبح صعيداً زلقا. أو يصبح ماؤها غوراً فلن تستطيع له طلبا. وأحيط بثمره، فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهي خاوية على عروشها﴾ (٣٦).

كما يحدثنا عن قارون الذى أعجب بماله وثروته، فهلك هو وثروته، فيقول ﴿إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة، إذ قال له قومه: لا تفرح، إن الله لا يحب الفرحين. وابتغ فيما آتاك الله

(٣٦) الآيات من (٣٢) إلى (٤٢) من سورة الكهف.

الدار الآخرة، ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك، ولا تبغ الفساد في الأرض، إن الله لا يحب المفسدين. قال: إنما أوتيته على علم عندي، أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا؟ ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون. فخرج على قومه في زينته، قال الذين يريدون الحياة الدنيا: ياليت لنا مثل ما أوتي قارون؟ إنه لذو حظ عظيم. وقال الذين أوتوا العلم: ويلكم. ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً، ولا يلقاها إلا الصابرون. فخسفنا به وبداره الأرض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين﴾ (٣٧).

وسواء أكان صاحب الجنتين أو قارون قد أصاب كل منهما ماله بالعين عن طريق العجب واستحسان نعمتهما أم كان ما حصل لهما عقوبة على كفرهما صاحبت عجبهما فالذى يعنينا هنا أن كلا منهما لم يكن يتمنى زوال نعمته فلا حسد.

فالعين والحسد متغايران، فإن أطلق أحدهما وأريد الآخر فعن طريق المجاز، فالعامة مثلاً يقولون: لا يحسد المال إلا صاحبه، يريدون ما يصيب المال بالعين إلا صاحبه، لأنه الذى يعلم تفاصيله، وخفايا حسنه وجماله.

ويؤكد هذا التغاير حديث مسلم عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: «كان إذا اشتكى رسول الله ﷺ رقاه جبريل، وقال: باسم الله يبريك، ومن كل داء يشفيك، ومن شر حاسد إذا حسد، وشر كل ذي عين» (٣٨).

ويزيد هذا التغاير تأكيداً أن علماء الحديث الذين خاضوا أسراره وأسرار الشريعة كالبخاري يضعون الحسد في كتاب الأدب، ويضعون العين في كتاب الطب، وفرق بين الأدب وموضوعاته، وبين الطب وأمراضه.

«والعين حق» حديث صحيح أخرجه البخاري ومسلم (٣٩) قال الحافظ ابن حجر: أي الإصابة بالعين شيء ثابت موجود (٤٠).

---

(٣٧) الآيات من (٧٦) إلى (٨١) من سورة القصص.

(٣٨) أخرجه مسلم/ كتاب السلام/ حديث رقم/ ٣٩.

(٣٩) أخرجه البخاري/ كتاب الطب/ باب العين حق، وأخرجه مسلم/ كتاب السلام حديث رقم/ ٤١، ٤٢/ وأخرجه أبو داود/ كتاب الطب باب/ ١٥ وأخرجه الترمذي/ كتاب الطب/ باب/ ١٩ وأخرجه أحمد في أكثر من عشرة مواضع.

(٤٠) فتح الباري/ كتاب الطب.

ويكـاد يجمع العلماء - علماء الإسـلام - على أن ضرراً مـا يحدث للمعيـون بسبب العائن، لكثرة الأحاديث الصحيحة في ذلك، والتى لاتقبل التأويل، ففي البخـاري «أعوذ بكلمات الله التامة من كل عين لامة» (٤١) وفيه «لا رقية إلا من عين أو حمة» (٤٢) وفيه عن عائشة - رضي الله عنهـا - « أمـر رسـول الله ﷺ أن يسترقى من العين» (٤٣) وعند مسلم «كان يأمـرنى أن أسترقي من العين» (٤٤) وفيه «لو كان شىء سابق القـدر سبقتـه العين» (٤٥) وفيـه «رخص رســول الله ﷺ في الـرقيــة من العين» (٤٦) وعند البخـاري عن أم سلمـة - رضى الله عنهـا - أن النبي ﷺ رأى فى بيتهـا جـاريــة، في وجهها سفعة (أي بقعة سوداء، أو حمرة يعلوها سواد) فقـال : استرقـوا لها، فإن بها النظرة» (٤٧) ولفظ مسلم «إن بها نظرة فاسترقوا لها» (٤٨) وعند مسلم أن النبي ﷺ قال لأسماء بنت عميس : مـالي أرى أجسـام بنى أخي ضـارعـة ؟ (أي نحيفــة) تصيبهم الحاجـة؟ قــالت : لا. ولكن العين تسرع إليهم. قــال : ارقيهم» (٤٩) ولفظه عنـد الترمذي وصححه، والنسائي عن أسماء بنت عميس أنها قالت : يـا رسـول الله. إن ولد جعفر (أي ابن أبى طالب، ابن عم الرسـول ﷺ) تسرع إليهم العين. أفأسترقى لهم؟ قال : نعم» (٥٠).

أقول : يكاد العلماء المسلمـون يجمعـون على أن ضرراً مـا يحدث للمعيـون بسبب العائن، لكثرة الأحاديث الصحيحة البالغـة حـد الشهـرة، وللمشـاهـدة في كثير من الأمكنة وكثير من الأزمنة بلغت حد التواتر، وهناك أناس اشتهـروا بتأثير عيـونهم، وكانوا يواجهون فيعترفون، وقد حدث لي منذ ثلاث سنوات أن كنت أقوم بمحاضرة

---

(٤١) أخرجه البخاري/ كتاب الطب.
(٤٢) المرجع السابق.
(٤٣) المرجع السابق.
(٤٤) مسلم/ كتاب السلام حديث رقم/ ٥٦.
(٤٥) المرجع السابق.
(٤٦) المرجع السابق حديث/ ٥٨.
(٤٧) مرجع البخاري السابق.
(٤٨) مرجع مسلم السابق.
(٤٩) المرجع السابق.
(٥٠) أخرجه الترمذي/ كتاب الطب.

دراسية لطالبات جامعة قطر، موضوعها «العين حق» وبعد أن انتهيت من الشرح قامت طالبة (أحفظ اسمها وأذكر صورتها حتى اليوم) فقالت - على سمع من زميلاتها البالغات تسعين طالبة - قالت : أنا عائن، وزميلاتي يعلمن ذلك، ويخفين عني ما أنعم الله به عليهن، حتى ابتعدن عني وعن مصاحبتي، وقالت : لقد أمسكت مرة بشعر ابنة أختي، وكان شعراً جميلاً جداً، فقلت : ما هذا الشعر الجميل؟ فخرج الشعر في يدي.

إن إنكار العين وآثارها جهل أو مكابرة، فهناك أناس اشتهروا بالعين، مما جعل علماء الشريعة يدرسون أحكامهم. قال الحافظ ابن حجر : ونقل عن ابن بطال عن بعض أهل العلم أنه ينبغي للإمام منع العائن - إذا عرف بذلك - من مداخلة الناس، وأن يلزمه بيته، فإن كان فقيراً رزقه ما يقوم به، فإن ضرره أشد من ضرر المجذوم الذى أمر عمر- رضى الله عنه - بمنعه من مخالطة الناس، وأشد من ضرر الثوم الذى منع الشارع آكله من حضور الجماعة، قال النووي : وهذا القول صحيح متعين، لا يعرف التصريح بخلافه. أ هـ[٥١].

كما درس علماء الشريعة مدى مسئولية العائن عن الأضرار التى يلحقها بالآخرين، وهل يقاد إذا قتل؟ وهل يضمن إذا أتلف؟

قال الحافظ ابن حجر : وقد اختلف في جريان القصاص عند القتل بإصابة العين، فقال القرطبي : لو أتلف العائن شيئاً ضمنه، ولو قتل فعليه القصاص أو الدية إذا تكرر ذلك منه، بحيث يصير عادة، وهو في ذلك كالساحر عند من لا يقتله كفراً. أ. هـ.

ولم يتعرض الشافعية للقصاص في ذلك، بل منعوه، وقالوا : إنه لا يقتل غالباً، ولا يعد مهلكاً، وقال النووي في الروضة : ولا دية فيه ولا كفارة، لأن الحكم إنما يترتب على منضبط عام، دون ما يختص ببعض الناس في بعض الأحوال، مما لا انضباط له، كيف ولم يقع منه فعل أصلاً؟ وإنما غايته حسد وتمن لزوال نعمة، وأيضاً فالذي ينشأ عن الإصابة بالعين حصول مكروه لذلك الشخص، ولا يتعين

---

(٥١) انظر فتح الباري/ كتاب الطب/ باب العين حق جـ ١٠، ص٢١٦.

ذلك المكروه في زوال الحياة، فقد يحصل له مكروه بغير ذلك من أثر العين. أ هـ.

قال الحافظ ابن حجر: ولا يعكر على ذلك إلا الحكم بقتل الساحر، فإنه في معناه، والفرق بينهما فيه عسر [٥٢]. وهكذا نجد علماء الإسلام يجمعون على أن ضرراً ما يحدث للمعيون بسبب العائن، سواء منهم الذين يحكمون عليه بالضمان، أو الذين لا يحكمون بضمانه.

والخلاف بينهم في: هل العين هي المؤثرة حينئذ بقوة وخاصية أودعها الله فيها؟ أو نفس العائن وروحه هى المؤثرة بقوة وخاصية أودعها الله فيها؟ أو أن الله تعالى يخلق في هذه الحالة ضرراً في المعيون؟ وليست هناك قوة مؤثرة خارجة من العين أو الروح؟ هذا هو موطن الخلاف.

فذهب فريق من العلماء إلى أن العين مؤثرة بخاصية أودعها الله فيها، قال الحافظ ابن حجر تصويرا لهذا الرأي: إن طبائع الناس تختلف، فقد يكون ذلك من سم يصل من عين العائن في الهواء إلى بدن المعيون وقد نقل عن بعض من كان معياناً أنه قال: إذا رأيت شيئاً يعجبنى وجدت حرارة تخرج من عينى، ويقرب من ذلك أن الصحيح قد ينظر إلى العين الرمداء فيرمد، ويتثاءب واحد بحضرته فيتثاءب هو. أشار إلى ذلك ابن بطال.

وقال الخطابي عن حديث «العين حق» قال: في الحديث أن للعين تأثيراً في النفوس، وإبطال قول الطبائعيين: إنه لا شيء إلا ما تدرك الحواس الخمس، وما عدا ذلك لا حقيقة له.

ويميل المازري إلى القول الثالث، لكنه يجيز الأول، ويعيب على من يقطع بالقول الأول، فيقول: زعم بعض الطبائعيين أن العائن ينبعث من عينه قوة سمية تتصل بالمعين، فيهلك أو يفسد، وهو كإصابة السم من نظر الأفاعي، وأشار إلى منع الحصر في ذلك مع تجويزه، وقال: إن الذي يتمشى مع طريقة أهل السنة (يقصد طريقتهم ومذهبهم في خلق الأفعال الاختيارية، وأن الله هو الخالق لها ولا دخل لقدرة العبد في خلق أفعاله الاختيارية، إلا ما عرف بالكسب، الذى عرف بأنه

---

(٥٢) المصدر السابق.

مقارنة قدرة العبد لقدرة الرب دون تأثير لها عند الأشاعرة، وعرف بالاختيار عند الماتريديه) أن العين إنما تضر عند نظر العائن بعادة أجراها الله تعالى أن يحدث الضرر عند مقابلة شخص لآخر. ثم قال: وهل هناك جواهر خفية؟ أو لا؟ هو أمر محتمل، لا يقطع بإثباته ولا بنفيه، ومن قال ممن ينتمي إلى الإسلام من أصحاب الطبائع: بالقطع بأن جواهر لطيفة غير مرئية تنبعث من العائن، فتتصل بالمعيون، وتتخلل مسام جسمه، فيخلق الباري الهلاك عندها، كما يخلق الهلاك عند شرب السموم، فقد أخطأ بدعوى القطع، ولكن جائز أن يكون عادة، ليست ضرورة، ولا طبيعة. أهـ.

قال الحافظ ابن حجر: وهو كلام سديد. أهـ[٥٣].

فأنت ترى أن المازري يعارض القطع بالرأي الأول، لكنه يجيزه، ويعتبره أمراً محتملاً.

لكن ابن العربي يتحمس لإبطال الرأي الأول والثاني، ويتزعم القول بالرأى الثالث، فيقول: ذهبت الفلاسفة إلى أن الإصابة بالعين صادرة عن تأثير النفس بقوتها فيه، فأول ما تؤثر في نفسها، ثم تؤثر في غيرها، وقيل: إنما هو سم في عين العائن، يصيب بلفحه عند التحديق إليه، كما يصيب لفح سم الأفعى من يتصل به، ثم رد الأول بأنه لو كان كذلك لما تخلفت الإصابة في كل حال، والواقع خلافه، ورد الثاني بأن سم الأفعى جزء منها، وكلها قاتل، والعائن ليس يقتل منه شيء في قولهم إلا نظره، وهو معنى خارج عن ذلك. قال: والحق أن الله يخلق عند نظر العائن إليه، وإعجابه به - إذا شاء - ما شاء من ألم أو هلكة، وقد يصرفه قبل وقوعه إما بالاستعاذة أو بغيرها، وقد يصرفه بعد وقوعه بالرقية أو بالاغتسال أو بغير ذلك. أهـ.

ويرد الحافظ ابن حجر على ابن العربي، وينتصر للرأي الأول والثاني، فيقول: وفي كلام ابن العربي بعض ما يتعقب، فإن الذى مثل بالأفعى لم يرد أنها تلامس المصاب، حتى يتصل به من سمها، وإنما أراد أن جنساً من الأفاعي اشتهر أنها إذا وقع بصرها على الإنسان هلك، فكذلك العائن. وليس مراد الخطابي بالتأثير المعني

---

(٥٣) فتح الباري/ كتاب الطب/ باب العين حق جـ ١٠، ص ٢١٦.

الذي يذهب إليه الفلاسفة (أي التأثير الذاتي دون قوة خارجية) بل ما أجرى الله به العادة من حصول الضرر للمعيون (يعنى بها أودع الله في العين، شأن الأسباب والمسببات) وقد أخرج البزار بسند حسن عن جابر رفعه «أكثر من يموت بعد قضاء الله وقدره بالنفس» قال الراوي : يعنى بالعين، وقد أجرى الله العادة بوجود كثير من القوى والخواص في الأجسام والأرواح، كما يحدث لمن ينظر إليه من يحتشمه من الخجل، فيرى في وجهه حمرة شديدة لم تكن قبل ذلك، وكذلك الاصفرار عند رؤية من يخافه، وكثير من الناس يسقم بمجرد النظر إليه وتضعف قواه، وكل ذلك بواسطة ما خلق الله تعالى في الأرواح من التأثيرات، ولشدة ارتباطها بالعين نسب الفعل إلى العين، وليست هي المؤثرة، وإنما التأثير للروح، والأرواح مختلفة في طبائعها وقواها وكيفياتها وخواصها، فمنها ما يؤثر في البدن بمجرد الرؤية من غير اتصال به، لشدة خبث تلك الروح، وكيفيتها الخبيثة، والحاصل أن التأثير بإرادة الله تعالى وخلقه ليس مقصوراً على الاتصال الجسماني، بل يكون تارة به، وتارة بالمقابلة، وأخرى بمجرد الرؤية، وأخرى بتوجه الروح، كالذي يحدث من الأدعية والرقي والالتجاء إلى الله، وتارة يقع ذلك بالتوهم والتخيل، فالذي يخرج من عين العائن سهم معنوي، إن صادف بدناً لا وقاية له أثر فيه، وإلا لم ينفذ السهم، بل ربما رد على صاحبه، كالسهم الحسي سواء بسواء. أ. هـ(٥٤).

ومن هذا العرض يتضح أن علماء المسلمين يتفقون على أن العين حق، وأن أثرها ثابت لا خلاف فيه، ولم أر ممن يعتد بكلامه من علماء المسلمين من ينكر العين، وينكر أثرها، وينفى حقيقتها، ويقول : إن تأثيرها من أساطير الأولين.

وإذا كانوا قد اختلفوا في الأثر الحاصل حين العين. هل هو من خلق الله وحده، ليس بواسطة العين؟ أو هو بخلق الله تعالى لخاصية في العين فإنهم يتفقون على أن الله تعالى هو الخالق للآثار، سواء عن طريق الوسائط المؤثرات، التى خلقها، وأودع فيها قوة التأثير، كالسكين في قطع اللحم، أم مباشرة، ولا أثر للوسائط سوى المقارنة، كما هي عقيدة الأشاعرة.

---

(٥٤) المصدر السابق.

وعلى الرغم من أنني أميل إلى أن العين أو النفس تؤثر بسر أودعه الله فيها، كما أودع في العين قوة الإبصار، وكما أودع في عين الحزين أشعة الحزن، فتؤثر في الناظر إليها حزناً، وكما أودع في عين المسرور أشعة الفرح، حتى يُقال : يكاد الفرح يقفز من عينيه، فتؤثر في الرائي بهجة وانشراحاً، وكما أودع في عين الغاضب أشعة الغضب، حتى يُقال : إن عينيه تقذف بشرر من الغضب، فيخاف من يخشاه، وكما أودع في عين المحب أشعة الحنان والود، فيدركها حبيبه، ويتأثر بها، حتى أطلق على هذه الأشعة رسول الغرام، وكما أودع في عين الصالح أشعة الرهبة والإجلال، حتى لايكاد جليسه يضع عينيه في عينيه خشية وتقديساً، وكما أودع في عين العذراء أشعة الحياء والخجل، يراها من يشاهدها. ومن حرم إدراك هذه الخواص ليس حجة على من يدركها، بل من يدركها حجة على من لا يدركها.

وإذا كان الأمر كذلك فلم نستبعد أن يكون الله تعالى قد أودع في بعض العيون - ولا نقول : في كل العيون - سراً وأشعة تصيب بعض من تقع عليه هذه الأشعة؟ ولا نقول : كل من تقع عليه هذه الأشعة، فإن الإصابة تتوقف على معادلة بين قوة السهام وحصانة من توجه إليه، كالعدوى في الأمراض، قد يخالط السليم المريض مرضاً معدياً ولا يعدى، إما لأن الميكروب في مرحلة لا يفتك فيها، وإما لأن السليم في مناعة تحول دون التأثر، وفوق هذا وذاك إرادة الله تعالى.

إن الإنسان في هذه العصور قد اخترع أشعة لا ترى، تخترق الأجسام ولا تحس، وتفعل مفعولها في الداخل، فتحطم بعض كرات الدم والأورام الخبيثة، وتفتت الحصاة الصخرية في الكلي، والمريض في كامل يقظته وإحساسه. لا يراها ولا يحس بها، فهل نصدق اختراع الإنسان ونستبعد حصول مثله من الله تعالى خالق الإنسان؟

ومع أنني أميل إلى أن العين أو الروح تؤثر بسر أودعه الله فيها، كما نرى المنوم المغناطيسي الذي يسيطر على من يستخدمه، فينام ويسلب إرادته - فإننى مع المازري لا أقطع بذلك، بل أجيز الرأي الثالث، لكنني أقطع بما قطع به العلماء من وقوع أثر للمعيون حين إصابته بالعين، وأرى أن من يُنكر ذلك من الماديين أو الطبيعيين يقع في ثلاثة أخطاء فاحشة.

الأول : أنه يشبه من ينكر البدهيات والمشاهدات . ويحار العالم في إقناع منكر البدهيات ، وقد عجز العلماء قديماً عن إقناع السوفسطائيين بالحجة والدليل النظري حين أنكروا حقائق الأشياء ، فلجأوا معهم إلى الحس والتحريق بالنار حتى يعترفوا بأن النار محرقة .

الثاني : أنه يشبه من ينكر الآيات والأحاديث القطعية ، أو يحاول تأويلها وتخريجها تأويلاً وتخريجاً لا يقبله مسلم ، ولا يستسيغه عاقل .

الثالث : أنه يشبه من ينكر حقيقة إيمانية ، هي أن الله تعالى هو الخالق ، لا خالق ولا موجد سواه ، خلق السبب والمسبب جميعاً ، وخلق الأثر والمؤثر جميعاً ، وأودع في المؤثرات سر تأثيرها ، خلق في النار الإحراق ، وفي الماء السيولة والعذوبة .

تلك حقيقة إيمانية ، يؤمن بها المؤمنون بأن الذي ربط المسبب بالسبب ، وخلق التأثير في المؤثر قادر على أن يفك هذا الارتباط ، ويحول بين المؤثر والتأثير ، فقد قال للنار : كوني برداً وسلاماً على إبراهيم ، فكانت برداً وسلاماً عليه ، وقال مهدداً بسلب سيولة الماء ﴿قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غوراً فمن يأتيكم بماء معين﴾؟ (٥٥) وقال مهدداً بسلب عذوبة الماء ﴿أفرأيتم الماء الذي تشربون؟ أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون . لو نشاء جعلناه أجاجا فلولا تشكرون﴾ (٥٦) .

وكما سلب الترابط بين السبب والمسبب فأوجد السبب ومنع المسبب هو قادر على أن يخلق المسبب بدون سبب ، كما خلق عيسى عليه السلام بدون أب ، وكما خلق آدم عليه السلام من غير أب ولا أم .

تلك حقيقة لا يماري فيها إلا بعض الفلاسفة الماديين ، الذين لا يؤمنون بما وراء المادة ، يرون أن الأسباب لاتتخلف عن المسببات ، والمسببات لا تنفصل عن الأسباب ، ويربطون بين المؤثرات وآثارها رباطاً لا يتخلف ، فلا يؤمنون بخوارق العادات ، ولا يسلمون بالمعجزات ، فتراهم ينسبون أثر المادة للمادة نفسها ووحدها ، فيقولون : الطبيعة ثارت ، والعواصف دمرت ، والزلازل والبراكين أهلكت ، وينسون من وراء المادة وخالقها ، لأنهم قصروا أحكامهم على المرئيات - مرئيات

---

(٥٥) سورة الملك - الآية (٣٠) .

(٥٦) سورة الواقعة . الآيات (٦٨ ، ٦٩ ، ٧٠) .

عيونهم، وغفلوا عن معقولات عقولهم، وإدراكات قلوبهم.

وحين يرتبط الموضوع بالإيمان بالغيب والمغيبات يدخل في دائرة التصديق بالخبر، أو عدم التصديق به، ومن هنا يقول المازري في حديث «العين حق» : أنكره طوائف من المبتدعة لغير معنى، لأن كل شيء ليس محالا في نفسه، ولا يؤدي إلى قلب حقيقة، ولا إفساد دليل، فهو من متجاوزات العقول، فإذا أخبر الشرع بوقوعه لم يكن لإنكاره معنى، وهل من فرق بين إنكارهم هذا؟ وإنكارهم ما يخبر به من أمور الآخرة؟ (٥٧).

وقال ابن العربي : إن توقف فيه (أي في تأثير العين) متشرع (أي يحتكم إلى الشريعة) قلنا له : الله ورسوله أعلم، وقد عضدته التجربة، وصدقته المعاينة، وإن توقف فيه متفلسف فالرد عليه أظهر، لأن عنده أن الأدوية تفعل بقواها، وقد تفعل بمعنى لا يدرك. أ. هـ(٥٨).

أي فالرد عليه إلزامي، أي كما يعتقد في فعل الأدوية وتأثيرها وإن كان بمعنى لا يدركه، فعليه أن يعتقد في العين وتأثيرها، وإن لم يدرك سرها.

الوقاية والعلاج :

بعد هذا التشخيص نقول :

كيف نحول بين المؤثر وتأثيره؟ ثم كيف نعالج الأثر إذا وقع؟

إن الوقاية من الأمراض تكون ببعد السليم عن مصادر المرض، فلا يقترب من مريض بمرض معد، وعليه أن يتحصن ضد الأمراض المعدية بالعقاقير التى تحميه من انتقال الميكروب إليه وتأثيره فيه، وعليه أن لا يتعرض أولاً لتناول أسباب المرض، فلا يأكل مسموماً أو ملوثاً أو خبيثاً من الخبائث التى حرمها الله. إلى غير ذلك.

ثم للوقاية من الأمراض علينا أن نحارب هذه المصادر، فنقضي عليها، أو نضيق دائرتها إلى أقصى الحدود الممكنة.

هذا في الأمراض التى ندرك سرها في علوم الطب البشري والجسمي والعضوي،

---

(٥٧) فتح الباري/ كتاب الطب/ باب العين حق جـ ١٠، ص ٢١٤.

(٥٨) المرجع السابق.

أما ما نحن فيه فهو مما نعجز عن إدراكه، وإن كنا نرى الأثر وندركه ونؤمن به، لأنه ككثير من خلق الله وآثاره، نستدل بالأثر المحسوس على وجود مؤثر، أما كيف أثّر؟ فما نحن فيه سر علمه - مازال - عند الله، لم يُطلع البشرية عليه، وسواء أقلنا: إن العين مؤثرة بقوة خلقها الله فيها؟ أم قلنا: بأن الله يخلق الأثر من عنده مصاحباً عين العائن فإن المؤثر الحقيقي في كلتا الحالتين هو الله تعالى. فكيف نحمي المعيون من العائن؟

إن الجاهلية الأولي حين عجزت عن الوقاية المعقولة تخيلت الوقاية في غير معقول، فلجأت إلى خرز وحصى وجمادات تعلقها كقلادة أو حجاب في بعض أجزاء الجسم لتحمى حاملها من العين، وفي بعض ريف مصر كانوا يملأون هذه التمائم بما يُعرف بالفاسوخة والشبة، ومازالت هذه المعتقدات الجاهلية الفاسدة تسيطر على عقول بعض الناس، فترى أحياناً هيكل كف بخمسة أصابع (خمسة وخميسة) على باب، وترى حذاء صغيراً يُعلق على باب أو في سيارة، وترى حجاباً في شكل مثلث أو مستطيل أو مربع معلقاً في صدر طفل، وكثيراً من أمثال هذه الخرافات المتوارثة عن الجهالة العمياء في أشكال عديدة.

جاء الإسلام وهذه الخرافات مسيطرة سيطرة تامة على عقول الناس، فحاربها بكل قوة، واعتبرها شركاً بالله، أي إشراكاً لمن لا يخلق ولا يغنى شيئاً لله تعالى الخالق الفعّال لما يريد، فقال ﷺ «إن التمائم والتولة شرك» (٥٩) ووجه الإسلام الأمة الإسلامية إلى اللجوء إلى الله تعالى، والفزع إليه، والالتجاء إليه في كل ما وقع، وفي كل ما يتوقع من شر. ﴿قل أعوذ برب الفلق. من شر ما خلق..﴾ والاستعاذة من شر الإصابة بالعين وردت صريحة على لسان الرسول ﷺ، فقال «أعوذ بكلمات الله التامة من كل عين لامة» (٦٠) وقال «استعيذوا بالله فإن العين حق» (٦١).

وكانت الاستعاذة مما يخشى بأسه ومما يخاف شره في الشرائع السابقة كما هي في شرع الإسلام، فقد روي ابن ماجه عن ابن عباس قال «كان النبي ﷺ يعوذ الحسن

---

(٥٩) أخرجه أبو داود/ كتاب الطب/ باب/ ١٧ وابن ماجه/ كتاب الطب باب/ ٣٩ وأحمد ١/ ٣٨١ وصححه الحاكم وابن حبان. والتمائم جمع تميمة، وهي خرزة أو قلادة تُعلق في الرأس، والتولة بكسر التاء وفتح الواو وتخفيف اللام المفتوحة، وهي شيء -كالحجاب- كانت المرأة تعلقه في جسمها تعتقد أنه يدفع عنها الضرر.

(٦٠) أخرجه البخاري/ كتاب الأنبياء/ باب/ ٤٠ وابن ماجه/ كتاب الطب/ باب ما عوذ به ﷺ، وأبو داود/ كتاب السنة/ باب/ ٢٠.

(٦١) أخرجه ابن ماجه/ كتاب الطب/ باب العين حق.

والحسين، يقول: أعوذ بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة، ومن كل عين لامة. قال: وكان أبونا إبراهيم يعوذ بها إسماعيل وإسحق»[٦٢].

إن العائن نفسه في حاجة إلى أن يلجأ إلى الله ليمنع إصابة عينه، لأنه - كما قلنا - قد يؤثر بعينه ضرراً في جسمه أو في ماله أو في أعز ما لديه بمجرد توجه شهوته إلى نعمة يرجوها ويحرص عليها، وقد وجهه القرآن الكريم إلى هذا اللجوء بقوله ﴿ولولا إذ دخلت جنتك قلت، ما شاء الله. لا قوة إلا بالله﴾[٦٣]. نعم. العائن في نفسه قد يتمنى أن تكسر سهام عينه قبل أن تصل إلى نعَم الآخرين، لأنه يرى أن الناس قد أصبحت تتحاشاه، وتخفى نعمها عنه، بَل وتفتعل الشكوى والبؤس أمامه، وشر البلايا التى تصيبه فتوى بعض العلماء بأنه يضمن ما أتلفه بعينه، ولو أنه لم يقع منه فعل أصلاً، بل فتوى بعض العلماء بأنه ينبغى للإمام أن يمنع العائن من مخالطة الناس، وأن يلزمه بيته لحماية الناس من خطره، لهذا ليس أمامه إلا أن يفزع إلى الله ويلجأ إليه أن يعافيه، وأن يكسر سهام عينه قبل أن تصيب نعم الآخرين، وقد وجهه رسول الله ﷺ إلى ذلك، بل وجه المسلمين بعامة إذا رأى أحدهم نعمة عند أحد فأعجبته أن يتجه إلى الله تعالى. قال ﷺ «إذا رأى أحدكم من أخيه ما يعجبه فليدع له بالبركة»[٦٤].

أما العلاج إذا وقع بالمعيون مرض أو إصابة في جسمه أو في جسم من يحبه فعليه مع اللجوء إلى الله أن يتخذ كل الوسائل الطبية المادية، فإن الإسلام يدعو إلى التداوي والأخذ بالأسباب، فقد قال ﷺ «يا أيها الناس تداووا، ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء»[٦٥] وقال «لكل داء دواء، فإذا أصيب دواء الداء برأ بإذن الله»[٦٦].

قال الحافظ ابن حجر: والتداوي لا ينافي التوكل، كما لا ينافي دفع الجوع والعطش بالأكل والشرب[٦٧].

---

(٦٢) أخرجه ابن ماجه/ كتاب الطب/ باب ما عوذ به النبي ﷺ.
(٦٣) سورة الكهف - الآية ٣٩.
(٦٤) أخرجه ابن ماجه/ كتاب الطب/ باب العين.
(٦٥) أخرجه البخاري/ كتاب الطب.
(٦٦) أخرجه مسلم كتاب الطب.
(٦٧) فتح الباري جـ ١٠، ص ١٤٢.

كذلك إذا وقع بالمعيون ضرر في ماله أو أمنه أو منصبه فعليه مع اللجوء إلى الله أن يتخذ كل الوسائل العادية للدفاع عن ماله ودفع الضرر عنه وسلامته من الآفات، وأن يتخذ كل طرق الحماية والعلاج. كل ذلك لا خلاف فيه بين أهل الإيمان، لكن الخلاف بينهم في أسلوب اللجوء إلى الله في هذه الحالات، وبخاصة في حالة الإصابة بالعين.

فالجمهور على أن خير أسلوب في ذلك الاستعاذة بالرقي، وكره قوم الرقي مطلقاً، واستدلوا بأدلة منها:

(١) حديث ابن مسعود أن النبي ﷺ «كان يكره عشر خصال. . . . فذكر فيها الرقي إلا بالمعوذات» قال الطبري: لا يحتج بهذا الخبر، لجهالة راويه، وعلى تقدير صحته فهو منسوخ بالإذن في الرقية بفاتحة الكتاب.

(٢) حديث ابن مسعود «إن الرقي والتمائم والتولة شرك» وأجاب العلماء بأن جمع الرقي مع التمائم والتولة يفيد أن المراد من الرقي نوع خاص، وهو ما كان في الجاهلية بألفاظ غير إسلامية، ومع اعتقاد أن الرقية تنفع بذاتها. قال الحافظ ابن حجر: كانوا في الجاهلية يعتقدون أن ذلك بذاته يدفع الآفات، وإنما كان ذلك من الشرك لأنهم أرادوا دفع المضار، وجلب المصالح والمنافع من عند غير الله تعالى، ولا يدخل في ذلك ما كان بأسماء الله وكلامه، فقد ثبت في الأحاديث استعمال الرقي. أ. هـ[٦٨].

(٣) استدلوا بحديث السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب، وفيه «هم الذين لا يتطيرون، ولا يكتوون، ولا يسترقون، وعلى ربهم يتوكلون» زعموا أن الكي والرقي تقدح في التوكل. قال الحافظ ابن حجر: وأجاب العلماء عن ذلك بأجوبة. أحدها قاله الطبري والمازري وطائفة أنه محمول على من جانب وابتعد عن اعتقاد أن الأدوية تنفع بطبعها، كما كان أهل الجاهلية يعتقدون. فالمعنى هم الذين لايكتوون معتقدين أن الكي يشفي بذاته، ولا يسترقون معتقدين أن الرقية تنفع بذاتها ولا يمنع ذلك أن يكتووا أو يسترقوا معتقدين أن النافع هو الله تعالى.

(٦٨) انظر فتح الباري ١٠/٢٠٦.

ثانيها : قاله الداودي وطائفة أن المراد بالحديث الذين يجتنبون فعل ذلك في حالة الصحة خشية وقوع المرض، (أي للوقاية) أما من يستعمل الدواء بعد وقوع الداء فلا.

ثالثها : قاله الحليمي. قال : يحتمل أن يكون المراد بهؤلاء المذكورين في الحديث من غفل عن أحوال الدنيا وما فيها من الأسباب المعدة لدفع العوارض، فهم لايعرفون الاكتواء، ولا الاسترقاء، وليس لهم ملجأ فيما يعتريهم إلا الدعاء والاعتصام بالله، والرضا بقضائه، فهم غافلون عن طب الأطباء، ورقي الرقاة، ولا يحسنون من ذلك شيئا.

وقريب من هذا ما قيل من أن المراد بترك الرقي والكي الاعتماد على الله في دفع الداء والرضا بقدره، لا القدح في من يفعل ذلك، لثبوت وقوعه في الأحاديث الصحيحة، ووقوعه من السلف الصالح، لكن مقام الرضا والتسليم أعلى من تعاطى الأسباب.

قال ابن الأثير : هذا من صفة الأولياء المعرضين عن الدنيا وأسبابها وعلائقها، وهؤلاء هم خواص الأولياء، ولا يرد على هذا وقوع ذلك من النبي ﷺ فعلاً وأمراً، لأنه كان في أعلى مقامات العرفان ودرجات التوكل، فكان ذلك منه للتشريع وبيان الجواز، ومع ذلك فلا ينقص ذلك من توكله، لأنه كان كامل التوكل يقيناً، فلا يؤثر فيه تعاطى الأسباب شيئاً، بخلاف غيره، ولو كان كثير التوكل، لكن من ترك الأسباب وفوض وأخلص في ذلك كان أرفع مقاما.

قال الطبري : قيل : لا يستحق التوكل إلا من لم يخالط قلبه خوف من شيء ألبتة، حتى السبع الضاري، والعدو العادي، وإلا من لم يسع في طلب رزق، ولا في مداواة ألم.

قال الحافظ ابن حجر : والحق أن من وثق بالله، وأيقن أن قضاءه عليه ماض لم يقدح في توكله تعاطيه الأسباب، اتباعاً لسنة رسول الله ﷺ، فقد ظاهر رسول الله ﷺ في الحرب بين درعين، ولبس على رأسه المغفر، وأقعد الرماة على فم الشعب، وخندق حول المدينة، وأذن في الهجرة إلى الحبشة، وإلى المدينة، وهاجر هو، وتعاطى أسباب الأكل والشرب، وادخر لأهله قوتهم، ولم ينتظر أن ينزل عليه من السماء، وكان هو أحق الخلق أن يحصل له ذلك، وقال للذي سأله : اعقلها وتوكل، حين

سأله: أعقل ناقتي؟ أو أدعها؟ فأشار إلى أن الاحتراز لا يمنع التوكل[٦٩].

والمحقق يرى أن هذا الحديث غايته أن هؤلاء المتصفين بهذه الصفات يدخلون الجنة بغير حساب، وهذا إن دلّ على شيء فإنما يدل على فضلهم، وكونهم أفضل لا يمنع أن يكون من لم يتصف بهذه الصفات فاضلاً، فلا دلالة على منع هذه الأفعال شرعاً.

أما الجمهور - وقد أجازوا الرقي - فقد قالوا: ثبت أن رسول الله ﷺ رقي غيره، ففي البخاري عن عائشة - رضي الله عنها - أن النبي ﷺ كان يعوذ بعض أهله، يمسح بيده اليمنى، ويقول: اللهم رب الناس. أذهب الباس، واشف أنت الشافي، لا شفاء إلا شفاؤك. شفاء لا يغادر سقما»[٧٠].

وثبت أن رسول الله ﷺ أذن لغيره أن يرقي، بل أمر غيره أن يسترقي، فعن عائشة «أمر رسول الله ﷺ أن يسترقي من العين»[٧١] وقد سبق هذا الحديث، كما سبق حديث عائشة «كان يأمرني أن أسترقي من العين» وحديث أم سلمة أن النبي ﷺ حين رأي بقعة سوداء في وجه جاريتها قال «استرقوا لها، فإن بها النظرة» وحديث أسماء بنت عميس أن النبي ﷺ حين رأي عندها أولاد جعفر نحيفة أجسامهم، وسألها عن ذلك، وقالت: العين تسرع إليهم. قال ﷺ: ارقيهم»

وثبت أن الصحابة - رضوان الله عليهم أجمعين - بعد النبي ﷺ كانوا يسترقون، ويرقى بعضهم بعضاً، مما يدل على أن الحكم لم ينسخ، ففي البخاري عن عبد العزيز ابن صهيب قال: دخلت أنا وثابت على أنس بن مالك، فقال ثابت: يا أبا حمزة. اشتكيتُ. (يشكو ثابت أنه مريض) فقال أنس: ألا أرقيك برقية رسول الله ﷺ؟ قال: بلى. قال أنس: اللهم رب الناس. مذهب الباس. اشف أنت الشافي لا شافي إلا أنت شفاء لا يغادر سقماً»[٧٢].

أمام هذه النصوص الصحيحة المشهورة قرر جمهور العلماء مشروعية الرقية، لكنهم اشترطوا لها شروطاً.

---

(٦٩) فتح الباري ١٠/ ٢٢٢.

(٧٠) أخرجه البخاري/ كتاب الطب/ باب رقية النبي ﷺ.

(٧١) أخرجه البخاري وسبق ذكره

(٧٢) أخرجه البخاري/ كتاب الطب/ باب رقية النبي ﷺ.

قال الحافظ ابن حجر : وقد أجمع العلماء على جواز الرقي عند اجتماع ثلاثة شروط :

أن تكون بكلام الله تعالى، أو باسم من أسمائه، أو صفاته.

وأن تكون باللسان العربي، أو بما يُعرف معناه من غيره.

وأن يعتقد أن الرقية لا تؤثر بذاتها، بل المؤثر هو الله تعالى (٧٣).

ولقد كانت الرقية في الجاهلية، لكنهم كانوا يستخدمون فيها كلمات لا يقرها الإسلام، ويستخدمون فيها طلاسم كأسماء ودعاء للشياطين، وكانوا يعتقدون أنها مؤثرة ونافعة بذاتها، فنهى رسول الله ﷺ عن الرقي، فلما جاءوه برقي لا شرك فيها، وليس فيها إلا ذكر الله أجازها.

ففي صحيح مسلم من حديث جابر قال : نهى رسول الله ﷺ عن الرقي، فجاء آل عمرو بن حزم، فقالوا : يارسول الله. إنه كانت عندنا رقية نرقى بها من العقرب؟ قال : فعرضوا عليه. فقال : ما أرى بأساً».

وفيه أيضاً من حديث عوف بن مالك قال : كنا نرقي فى الجاهلية. فقلنا : يا رسول الله. كيف ترى في ذلك؟ قال : اعرضوا عليّ رقاكم، فعرضوا. فقال : ِقي ما لم يكن فيها شرك» (٧٤) لكن الجمهور الذي أقرّ مشروعية الرقي اختلفوا فيما بينهم. هل الرقية مشروعة لكل مرض؟ أو هي مشروعة في بعض الأمراض دون بعض؟ وهل هي مشروعة بكل رقية جربت منفعتها؟ أو بالمعوذتين وما ورد من ألفاظها فحسب؟.

فقال قوم : لا تجوز إلا من العين ولدغة العقرب، لورود الحصر بذلك في حديث «لا رقية إلا من عين أو حمة» (٧٥) وزاد بعضهم «النملة» أي القروح التى تخرج في البدن، لورودها في بعض الروايات (٧٦) وأجازها الجمهور في كل الأمراض، ويدعمهم حديث أنس وثابت المذكور قريباً.

---

(٧٣) فتح الباري ١٠/ ٢٠٦.

(٧٤) صحيح مسلم/ كتاب السلام/ باب لا بأس بالرقي ما لم يكن فيها شرك.

(٧٥) أخرجه البخاري/ كتاب الطب، والحمة بضم الحاء وتخفيف الميم ذات السموم من الأفاعي.

(٧٦) أخرجه مسلم/ كتاب الطب/ حديث/ ١٧.

وذهب قوم أنها لاتجوز إلا بالمعوذتين وغيرهما من أسماء الله تعالى، وبما في كتابه.

قال الحافظ ابن حجر : وعلى كراهة الرقي بغير كتاب الله علماء الأمة. زاد القرطبي : أو بأسمائه فيجوز، فإن كان لفظ الرقية مأثوراً فيستحب. ثم قال القرطبي : فما كان يرقى به في الجاهلية مما لا يعقل معناه يجب اجتنابه، لئلا يكون فيه شرك، أو يؤدى إلى الشرك، وقال الربيع : سألت الشافعي عن الرقية؟ فقال : لا بأس أن يرقى بكتاب الله، وبذكر الله.

وقال ابن التين : الرقي بالمعوذات وغيرها من أسماء الله هو الطب الروحاني، إذا كان على لسان الأبرار من الخلق حصل الشفاء بإذن الله تعالى، فلما عز هذا النوع فزع الناس إلى الطب الجسماني، والرقي المنهي عنها التى يستعملها المعزّم وغيره ممن يدّعي تسخير الجن له، فيأتي بأمور مشتبهة مركبة من حق وباطل، يجمع إلى ذكر الله وأسمائه ما يشوبه من ذكر الشياطين، والاستعانة بهم، والتعوذ بمردتهم. أ. هـ (٧٧). وهكذا نجد الرقي الممنوعة هي ما كانت بغير اسم الله وصفاته وآياته من رقي الجاهلية التى لا تفوض الأمر لله تعالى وحده.

وهكذا نرى الذين كرهوا الرقي من عباد المسلمين وصالحيهم كرهوها على أنها منافية للتوكل، لا لأنها لا تنفع، كرهوها لأن البلاء يكفر السيئات ويرفع الدرجات، فآثروا البقاء فيه على رفعه، كرهوها وتركوها كما كرهوا وتركوا التداوي بالعقاقير، وفضلوا دوام الأمراض على الشفاء.

ويلزمهم - كما قال الحافظ ابن حجر : أن لا يأكلوا إذا جاعوا، وأن لا يشربوا إذا عطشوا حرصاً على التوكل من جهة، ورغبة في دوام الجوع والعطش اللذين هما من أنواع البلايا حيث يقول جل شأنه ﴿ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات، وبشر الصابرين﴾ (٧٨) إن الاستعاذة والرقي بالنسبة للأمراض كلها أخذ بأسباب الشفاء، لأنه أساساً من الله تعالى ﴿وإذا مرضت فهو يشفين﴾ (٧٩) وما الأدوية بأنجع من الرقي واللجوء إلى الله، مادامت الأدوية يتوقف العلاج بها على مشيئة الله وإرادته، الأمر الذى يعترف به الأطباء قبل المرضى.

---

(٧٧) فتح الباري جـ ١٠، ص ٢٠٧.

(٧٨) سورة البقرة - الآية ١٥٥.

(٧٩) سورة الشعراء - الآية ٨٠.

إن الرقي التجاء إلى الله واستغاثة به عن طريق الدعاء ﴿وقال ربكم ادعوني أستجب لكم﴾ (٨٠).

وإن الدعاء لا يتنافي مع التوكل، بل هو من التوكل، فالتوكل تفويض الأمور لله، والدعاء رجاء من الله وتفويض إليه، فهما متآخيان لا متنافيان.

كما أن الدعاء لا يتنافى مع القدر، بل هو من القدر، فما يدعو الداعي إلا بقدر من الله، كما أنه لا يأخذ بالأسباب المؤدية إلى المسببات إلا بقدر من الله.

إن بعض الماديين، وبعض الفجرة، وبعض ضعاف الإيمان هم وحدهم الذين يستهينون بالدعاء، ويسخرون منه، ولا يثقون في نفعه، ربما لأنهم دعوا كثيراً فلم يدركوا إجابة لدعائهم، ربما لأنهم غفلوا عن حقيقة أساسية، رسمها الله بقوله ﴿إنما يتقبل الله من المتقين﴾ (٨١) لكن الذي يمد يديه إلى السماء ويقول: يا رب، يا رب. ومطعمه من حرام، ومشربه من حرام، وملبسه من حرام، وقد غذي بالحرام. كيف يستجاب له؟

وربما لأنهم يدعون غير متضرعين، وغير واثقين بقدرة المدعو جل شأنه على إجابة الدعاء، أو غير راجين حصول المدعو به آيسين من رحمة الله، ولو أنهم فعلوا ذلك ربما أجيبوا بفضل الله ورحمته، فإن المشركين حين فعلوا ذلك أجيبوا، كما يحكي القرآن الكريم إذ يقول ﴿قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعاً وخفية: لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين. قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون﴾ (٨٢) ويقول «وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه فلم نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كفورا» (٨٣) ويقول ﴿فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون﴾ (٨٤).

وأما إجابة الله لدعاء الأنبياء بنفس ما دعوا به فكثيرة في القرآن الكريم، واقرأ معي من سورة الأنبياء قوله تعالى: ﴿ونوحاً إذ نادى من قبل فاستجبنا له، فنجيناه

---

(٨٠) سورة غافر - الآية ٦٠.
(٨١) سورة المائدة - الآية ٢٧.
(٨٢) سورة الأنعام ٦٣، ٦٤.
(٨٣) سورة الإسراء - الآية ٦٧.
(٨٤) سورة العنكبوت - الآية ٦٥.

وأهله من الكرب العظيم﴾ (٨٥) ﴿وأيوب إذ نادى ربه أني مسني الضرُّ وأنت أرحم الراحمين. فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضرّ﴾ (٨٦) ﴿وذا النون إذ ذهب مغاضباً فظن أن لن نقدر عليه، فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين. فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين﴾ (٨٧) ﴿وذكريا إذ نادى ربه. رب لا تذرني فردا وأنت خير الوارثين. فاستجبنا له ووهبنا له يحيى﴾ (٨٨).

وما لنا نذهب بعيداً والرقي ثابتة في الشريعة الإسلامية، وكما ذكرنا: جبريل رقى رسول الله ﷺ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم رقى نفسه وغيره، وأذن لغيره أن يرقى، بل أمر غيره أن يرقي، ولنا في رسول الله ﷺ أسوة، وكما يقولون: لا اجتهاد مع النص. والله أعلم

وما علينا إلا أن نكون أهلاً للدعاء، وأن نطلب من الصالحين ومن نحسن بهم الظن في الله أن يدعوا لنا بخير، ولنا أن نرقى أنفسنا، وأن نطلب من غيرنا أن يرقينا، وأن يرقى بعضنا بعضا. وعلى الله القبول.

نفعنا الله بما علمنا، وعلمنا ما ينفعنا، وعلى الله قصد السبيل.

---

(٨٥) سورة العنكبوت - الآية ٧٦.

(٨٦) سورة العنكبوت - الآيتان ٨٣، ٨٤.

(٨٧) سورة العنكبوت - الآيتان ٨٧، ٨٨.

(٨٨) سورة العنكبوت - الآيتان ٨٩، ٩٠.